زقزوق وهموم الأمة

د. محمود سلامة(*)

من أهم ما يجب أن يلتفت إليه في هذا المضمار هو أنه كلمة هموم تعني الأمور التي تقلق الإنسان وتشغل باله، وتدفعه إلى التفكير وربما منعته النوم وحرمته الراحة وخاصة في أوقات خلواته وأيلولته إلى الهدوء والنوم ليلًا، ولذلك قيل الدَين هم بالليل ومذلة بالنهار.

وليس هناك من شك في أننا إذا ما ذهبنا نسبر أحوال الأمم عبر التاريخ فإننا لن نرى أمة كان لها أوفى نصيب من هموم الدنيا وشرورها مثلما حظيت به الأمة الإسلامية من هموم ويرجع ذلك – في رأينا – إلى أنها أطول الأمم حضارة من حيث الامتداد التاريخي. كما أنها أمنع الأمم وأقواها من حيث الأسس التي شيدت عليها تلك الحضارة؛ ولذلك راح غيرها من اتباع حضارات بائدة أو حضارات متوفزة نشطة يسلطون سهامهم تجاه حضارة الأمة الإسلامية يدفعهم إلى ذلك أطماع مادية أو أحقاد.

والمفكر المسلم إزاء هذا – إذا اعتبر نفسه مفكرًا مسلمًا بحق – عليه من المسئوليات الجسام ما ينوء بحملها فرد أو عدة أفراد، ومن هنا كان على هذا المفكر أي مفكر مسلم واجب الدعوة العامة الشاملة لبني جلدته وشركائه من المفكرين المسلمين وغير المفكرين أن ينهضوا مشمرين عن سواعد الجد واضعين أنفسهم على ثغر من ثغور هذه الأمة بالفكر والعمل والنشاط لا من حيث الرد الفكري أو العمل من أجل استعداد عسكري للدفاع عن الحوزة والنضال دون البيضة فحسب، بل كذلك من أجل وضع أسس لمجتمع قوي مبني على العلم والاستنارة متشبث بعرى دينه وأخلاقيات القدوة التي وصفتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بقولها "كان خلقه القرآن".

(*). أستاذ الفلسفة الاسلامية، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، مصر.

والدكتور محمود حمدي زقزوق هو مثال لهذا المفكر الذي شعر بمسئوليته إزاء أمته وما يعتريها من هموم تحتاج إلى من يحملها على عاتقه، فنهض بفكره متوخيًا الموضوعية يبين ويوضح ما عساه أن يكون موضع أخذ ورد عند أصحاب الحضارات المناوئة، والحق أنه كانت وما زالت هناك حضارتان ناوأت الأمة الإسلامية منذ تأسيسها على يدي صاحب الدعوة محمد ﷺ وأعنى بها الحضارة الفارسية والحضارة الغربية بما ورثتها الأولى عبر قرون من الديانة الزرادشتية وما تطور عنها من مذاهب، وما انحدر إلى الثانية من فكر يوناني وروماني متشحًا بعد ذلك بشزرات من الديانة المسيحية وما ترسبت في خلال ذلك من أفكار عبرانية.

وقد اتيحت الفرصة لمفكرنا زقزوق في أن يحتك بأصحاب الحضارة الغربية، إذ عاش بين ظهرانيهم حقبة ليست بالقصيرة وكانت هذه المعيشة من أجل الاطلاع على الأسس الفكرية لهذه الحضارة وعلى ما بين حضارته الإسلامية وبين الحضارة الغربية من وشائج اتسم بعضها بسمة الإيجاب أحيانًا وبسمة السلب أحايين.

واللافت للنظر في دراسات وبحوث الدكتور زقزوق حول الموضوع الذي شغله وملأ عليه حياته البحثية أنه يتناول موضوعه متسمًا بالاتساع والعمق والحياد أو الموضوعية، كما أنه يتجنب التشنج والاضطراب العاطفي خاصة إذا ما لاحظ افتئاتًا من جانب بعض المفكرين الغربيين.

فعندما يتناول موضوع الاستشراق فإنه يقول: "والاستشراق – في حقيقة الأمر – يشتمل على عناصر سلبية وأخرى إيجابية... وليس من الصعب التمييز بين العناصر الإيجابية وبين العناصر السلبية في دراسات المستشرقين، فالعناصر الإيجابية تتمثل في العناية بالمخطوطات العربية في المكتبات العربية وفهرستها وتحقيق العديد من أمهات الكتب العربية في شتى مجالات الفكر الإسلامي والقيام

بالعديد من الدراسات اللغوية المفيدة والموسوعات والمعاجم النافعة.. أما العناصر السلبية في دراسات المستشرقين، فإنها تتمثل بصفة أساسية في العديد من الدراسات والبحوث حول القرآن الكريم والسنة المحمدية وسيرة الرسول ﷺ فالكثير من هذه الدراسات يشتمل على أخطاء شنيعة لا تخفى على الباحث المسلم صاحب العقيدة الواعية.

ويحذر الدكتور زقزوق بعض الكتاب المسلمين الذين يتصدون للرد على المستشرقين من شيئين خطيرين يلحقان الضرر بقضايانا أكثر مما يفيدانها وأعني بهما: عدم التدقيق والتعمق فما يكتبه المستشرقون من تجاوزات تخالف الحق والواقع، وعدم التدقيق هنا ناشئ عن فقر هؤلاء الكتاب المسلمين من ناحية الخلفية الثقافية الإسلامية. أما الخطأ الثاني الذي يقع فيه هؤلاء الكتاب المسلمون فهو الاندفاع العاطفي في رفض كل ما يكتبه المستشرقون عن الإسلام، وكأنه يريد بذلك أن ينبههم إلى قاعدة علمية رائعة وضعها الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكثيرًا ما رددها الإمام الغزالي رحمه الله وهي "لا تعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق تعرف أهله".

وإذا كان غيري من الزملاء الأعزاء قد تناول في بحثه موقف الدكتور زقزوق من الاستشراق فإنني أكتفي في حديثي عن هذا الموضوع بالتنويه بالمنهج العلمي في تناول هذا الموضوع كما هو واضح من كتابته على نحو ما ألمحت إليه. ولكنني سأتناول موضوعًا آخر شغل الدكتور زقزوق وهو يحمل على كاهله هموم أمته. وأعني به حديثه عن مواقف الفلاسفة والأدباء الغربيين من الإسلام. وأسباب هذه المواقف ونتائجها في تشكيل العلاقة بين الإسلام والغرب.

يعرض الدكتور زقزوق بأمانة تدعو إلى الإعجاب نماذج لأدباء وفلاسفة غربيين تناولوا الإسلام وقضاياه في إبداعاتهم الأدبية وبحوثهم. ويحدد بدقة

الأسباب الحقيقية لمواقفهم المختلفة من الإسلام. فهؤلاء الأدباء والفلاسفة إما أنهم أخذوا معارفهم عن الإسلام مباشرة أي بالرجوع إلى النصوص الموثوقة مثل القرآن والسنة وبحوث المفكرين المسلمين، وإما أنهم عرفوا الإسلام من خلال كتابات المستشرقين الذين كانوا يحملون في نفوسهم ضغائن وأحقادًا ضد الإسلام، وأخيرًا قد يكونون أخذوا معلوماتهم من خلال سلوك المسلمين المتأخرين وعاداتهم وتقاليدهم التي لا تمثل الإسلام في حقيقته ومن ثم لم يفرقوا بين الإسلام كحقائق مجردة ثابتة وبين ما انحرف إليه كثير من المسلمين المتأخرين مما يمكن أن يطلق عليه البدع والترهات والأباطيل التي لا تمت إلى الإسلام بصلة.

يتصدى الدكتور زقزوق في الفصل الأول من الباب الثاني في كتابه الإسلام في الفكر الغربي لعدد من النماذج من المفكرين والأدباء الغربيين محللًا موقفهم من الإسلام وقضاياه تحليلًا موضوعيًا ذاكرًا إيجابياتهم وسلبياتهم دون أن يظهر في كتاباته أية نبرة للتشنج والتعصب، بل يعتمد على الحقائق كما جاءت في كتابات هؤلاء وإبداعاتهم، وقد اعتمد في عرض هذه النماذج التسلسل التاريخي كما يقول هو نفسه وجاءت هذه النماذج على النحو التالي:

ريموند لول (١٢٣٥ – ١٣١٦م) دانتي (١٢٦٥ – ١٣٢١م) بسكال (١٦٢٣ – ١٦٦٢م) جون لوك (١٦٣٢ – ١٧٠٤م) ليسنج (١٧٢٩ – ١٧٨١م) فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨م) جوته (١٧٤٩ – ١٨٣٢م) هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١م) تولستوي (١٨٢٨ – ١٩١٠م).

والملاحظ على هذا التسلسل التاريخي أنه يغطي الفكر والأدب الغربي منذ عقيب الحروب الصليبية حتى القرن العشرين وقد تراوحت كتابات هؤلاء بين تعصب على الإسلام وإنصاف له عند هؤلاء الأدباء والمفكرين. بالإضافة إلى أن بعضهم قد خلط بين هذا وذاك، لكن الذي يلفت النظر أن الهجمة الظالمة على الإسلام من قبل هؤلاء أخذت تخف وطأتها شيئًا فشيئًا ولعله يأتي اليوم الذي

يتجرد فيه فلاسفة الغرب وأدباؤه من عواطفهم العدائية وينظرون إلى الحقيقة المجردة التي جاء بها الإسلام وهي مخاطبة البشر جميعًا خطابًا فيه الرحمة والحب والإخاء والمساواة وجميع خصال الخير.

إن أهم ما يعرض له الدكتور زقزوق في حديثه عن ريموند لول هو قصته (الوثني والحكماء الثلاثة) وهي عمل يدخل في المجال الأدبي ذي المضمون الديني. وأول ما يسقط العمل الأدبي من الوجهة الفنية هو مجافاة الأفكار المعروضة للحقائق التاريخية؛ لأن فن القصة وإن جنح إلى الخيال إلا أن هذا الخيال يظل محتفظًا بالحقائق الأصلية التي يقتضيها العلم. فوظيفة الخيال في الأدب عمومًا هو تجسيد الأفكار وتشخيص المعاني الغامضة حيث تعجز اللغة العادية عن الإفصاح عما يختلج في قلب الأديب أو عقله من أحاسيس أو أفكار، أما أن يزور الخيال حقائق العلم فذلك مدعاة إلى السقوط الفني للعمل الأدبي.

وأكبر شاهد على ذلك – كما يرى الدكتور زقزوق – هو إنطاق المؤلف للحكيم المسلم بحقائق ناقصة عن الإسلام من شأنها أن تبرز عقيدة الإسلام في شكل مبتور إذ حصر عقيدة الإسلام في اثني عشر بندًا ليس من بينها الإيمان بالملائكة وبالرسل السابقين على دعوة محمد ﷺ وبالكتب المنزلة عليهم، ولا شك أن ذلك أمر مقصود من المؤلف الذي يعلم حق العلم وأن هذا الإيمان المشار إليه يسقط هدفه الذي من أجله ألف الكتاب ويبين أن عقيدة الإسلام تغني عن العقائد في الأديان السابقة، إذ هي تشملها وتستبعد في نفس الوقت الأباطيل والأخطاء التي وقع فيها أتباع اليهودية والنصرانية.

ولا ينسى الدكتور زقزوق أن يشير إلى أن هذا الكتاب أو هذه القصة هي أول عمل من جانب الغربيين في مجال مقارنة الأديان. وإلا فإن القرآن الكريم قد سبقهم إلى ذلك وتبعه علماء الكلام المسلمون حتى أصبح هذا العلم مستقلًا له أصوله وقواعده لديهم.. ومع ذلك فإن علم مقارنة الأديان في نشأته القرآنية أو

الكلامية لم يكن الهدف منه حث الناس على ترك أديانهم واعتناق الإسلام، بل فقط لبيان الحق من الباطل ثم بعد ذلك على الناس أن يختاروا بين هذا الحق أو ذلك الباطل، ويستشهد الدكتور زقزوق على هذه الحقيقة بآية المباهلة في سورة آل عمران وبقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، أما هذا الأديب الغربي فإنه كان يهدف من وراء ذلك إلى جعل العالم كله ينضوي تحت راية المسيحية، وقد أعلن عن هذه الرغبة صراحة، إذ تمنى أن يتحول التتار الذين غزوا منطقة البحر الأبيض المتوسط إلى المسيحية ومع ذلك فقد خابت أمانيه فقد اعتنق التتار الإسلام بدلًا من المسيحية.

أما النموذج الثاني من الأدباء والفلاسفة الغربيين الذين تحدثوا عن الإسلام أو عرضوا له في إنتاجهم الأدبي فهو الأديب الإيطالي دانتي صاحب الكوميديا الإلهية، وهنا يشير الدكتور زقزوق إلى تأثر الأديب الإيطالي في عمله الأدبي برسالة الغفران لأبي العلاء المعري وبقصة الإسراء والمعراج التي حدثت للرسول محمد ﷺ، والحق أن علماء الأدب المقارن يعترفون بهذا التأثر ويؤكدونه إلى درجة أن هذه الحقيقة لدى الدارسين أصبحت من المعلومات العامة وبالرجوع إلى ما كتبه أستاذنا المرحوم الدكتور محمد غنيمي هلال يجد ذلك واضحًا في كتابه القيم (الأدب المقارن).

وبالرغم من اعتماد دانتي في مصادره على ما كتبه المسلمون مما يوضح إلمامه إلمامًا كافيًا بحقائق التاريخ الإسلامي وأدبيات الإسلام بالرغم من ذلك فإن هذا الأديب الإيطالي يجانب الصواب ويصور النبي محمد ﷺ تصويرًا لا يليق بسيد الأنبياء وخاتمهم وبمنشئ أعظم حضارة عرفها العالم عبر تاريخه إذ يصفه باعتباره "واحدًا من أولئك الذين أثاروا النزاع والشقاق في العالم وجلبوا عليه الخراب والدمار ومن أجل ذلك يجعل دانتي مكانه مع هؤلاء في قاع جهنم يعانون ويمزقون" وعلى شاكلة ذلك يصور دانتي عليًا ﷺ، ويعلق الدكتور زقزوق على هذه الصورة البشعة التي يصورها دانتي للرسول وأبن عمه علي

بقوله "لقد كان ذلك العصر – بحق في موقفه من الإسلام – هو عصر الجهالة"، ثم يستشهد على وصف هذا العصر بهذه الصفة يقول بها كاتب غربي هو "سوذرن Southern) في كتابة (نظرة الغرب إلى الإسلام في العصور الوسطى).

والنموذج الثالث الذي يعرض له الدكتور زقزوق هو الفيلسوف الفرنسي الشهير بسكال الذي كان له ضمن مؤلفاته كتاب بعنوان (خواطر حول الدين) يصف فيه الرسول محمدًا ﷺ بأنه العدو اللدود للكنيسة، ولذلك كان حريصًا كل الحرص على محاربته وقد عقد بسكال مقارنة بين محمد ﷺ وبين المسيح عليه السلام يلخصها الدكتور زقزوق في النقاط التالية:

الأولى : لم يتنبأ العهد القديم بظهور محمد في حين.تنبأ بظهور المسيح.

الثانية : لقد دأب محمد على اقتراف القتل في حين أن المسيح لم يقترف القتل بل كان يدع أتباعه يقتلون.

الثالثة : لقد كان محمد يحرم القراءة في حين كان الحواريون يأمرون بالقراءة.

الرابعة : لقد صادف محمد نجاحًا دنيويًا في حين كان المسيح مغلوبًا على أمره وقد انتهى الأمر به إلى الصلب.

ويضيف بسكال إلى ذلك نفيه أية معجزة عن الرسول محمد ﷺ كما ينسب إليه كثيرًا من الأخلاق غير الكريمة.

والنموذج الرابع هو الفيلسوف الإنجليزي جون لول الذي لم يقرأ القرآن ولا السنة ولم يشافه أحدًا من المسلمين ومع ذلك ينقل عن الرحالة الألماني باو مجارتن مزاعم ما أنزل الله بها من سلطان ويقبلها بلا مناقشة وهو الفيلسوف صاحب الفلسفة التجريبية ثم يسجل هذه الأكاذيب في كتابه (دراسة في العقل البشري).

والنموذج الخامس يبين مدى موضوعية الدكتور زقزوق حيث يعرض لأفكار أحد أدباء القرن الثامن عشر وهو الأديب والناقد الألماني ليسنج الذي هاجم الكنيسة هجومًا عنيفًا وذلك بسبب مجافاة تعاليمها للعقل وتناقضها معه، وفي عام ١٧٧٩ ألف مسرحية بعنوان (ناتان الحكيم) وهي مسرحية شعرية يصور فيها وجود الأديان الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية) بجوار بعضها البعض في القدس متعايشة، ويمثل السلطان صلاح الدين واحدًا من أبرز شخصيات هذه المسرحية، ويرى ليسنج أن كلًا من هذه الأديان الثلاثة يشتمل على نواة الدين الأصلي.

ولا يكتفي ليسنج بتوخي الحياد في مسرحيته السابقة بل يضيف إلى ذلك في كتاب آخر هو (إنقاذ هـ . كاردانوس) في هذا الكتاب يعبر المؤلف عن اقتناعه بأن الأخبار التي كانت رائجة في القرن السادس عشر عن محمد وتعاليمه كانت أخبارًا قاصرة جدًا ومختلطة بالكثير من الأكاذيب التي كان المجادلون المسيحيون يقومون بترويجها على أنها حقائق.

وبالرغم من ذلك فإن ليسنج في كتاب آخر يخلط بين ما يقوم به بعض المسلمين من عادات وتقاليد وبين حقائق الإسلام كما جاءت في الكتاب والسنة وكما سجلها التاريخ من خلال سلوك المسلمين الأولين. ومع ذلك فإنه يعيب على معظم الناقدين للإسلام أنهم لم يطلعوا على القرآن ويشير إلى أن معظم من قرءوه قد قرءوه بنية سيئة.

ويأتي النموذج السادس، فيعرض لنا الدكتور زقزوق آراء الأديب الفرنسي (فولتير) وربما كان إلحاد هذا الأديب سببًا في حملته الظالمة على محمد ﷺ، ولعله استخدم المعادل الموضوعي وهو مصطلح في المجال الأدبي لم يكن قد ظهر في عصره في أوروبا ولذلك عندما هاجم الكنيسة المسيحية هاجمها في شكل هجومه على ا لكهان في الوثنية وذلك في مسرحيته (أوديب) عام ١٧١٨.

كما أن حملته على الأنبياء جميعًا خاصة هجومه على محمد ﷺ وذلك في مسرحيته (التعصب أو النبي محمد)، وقد مثلت هذه المسرحية مرتين في فرنسا وفي المرة الثانية ١٧٤٢ احتج السفير التركي عليها لدى المسئولين الفرنسيين فتوقفت المسرحية مدة تسعة أعوام، وقد أفرط فولتير إذ افتأت على الحقيقة عندما نعت النبي محمد ﷺ بأحط النعوت الأخلاقية

وإننا نذهب مع الدكتور زقزوق إلى أن فولتير كان يعني بهذه النعوت كل ما يتصل بالكنيسة ولم يكن يعني محمدًا في الحقيقة بدليل أنه وصف النبي محمد ﷺ بصفات سامية في مقال له عن الأخلاق إذ يقول "الرجل العظيم الذي جمع في شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم والذي قام بأعظم الأدوار التي يمكن أن يقوم بها إنسان على ظهر الأرض"، ولذلك يرى الدكتور زقزوق أن رأي فولتير الأخير هذا هو الرأي الذي كان مقتنعًا به في حقيقة الأمر.

أما النموذج السابع فهو الأديب الألماني جوته، ولا يحتاج هذا الأديب إلى التنويه بشهرته وإبداعاته وفكره سواء داخل بلاده أو على المستوى العالمي لما له من إنتاج متميز وإبداعات راقية تمس الحس الإنساني والعقل البشري على حد سواء، وليت المفكرين والأدباء الغربيين يحذون حذوه في تأسيس العلاقة بين الشرق والغرب على الحياد والموضوعية والعقلانية.

يذكر الدكتور زقزوق أن هذا الأديب قرأ القرآن في ترجمتين الألمانية واللاتينية؛ ولذلك اقتبس في كتاباته الكثير من الآيات القرآنية من سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام ويونس ويوسف والإسراء وطه والعنكبوت.

ويحمل جوته على المتعصبين من الغربيين الذين يقفون موقفًا معاديًا من الإسلام ومن القرآن ومن النبي محمد ﷺ ولذلك يقول: "من حماقة الإنسان في

دنياه أن يتعصب كل منا لما يراه، وإذا كان الإسلام معناه التسليم لله فإننا جميعًا نحيا ونموت مسلمين".

وكان جوته قد عقد العزم على كتابة مسرحية عن محمد وشرع في ذلك عام ١٧٧٣ وعنون فاتحة الفصل الأول منها (مفاجأة محمد) وقد تتبع حياة محمد منذ صغره حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى، كما كانت له أشعار غنائية خلال المسرحية ومنها نشيد يتناوب إلقاءه علي رضي الله عنه وفاطمة رضي الله عنها.

ويأسف الدكتور زقزوق على أن هذه المسرحية ظلت مشروعًا لم يكتب له أن يتحول إلى عمل أدبي يأخذ مكانه بين روائع جوته الأدبية.

وقد سجل الدكتور زقزوق ما يرويه التاريخ عن إعجاب جوته بالمسلمين وصلواتهم وسلوكهم وكذلك اعتزازه بالقرآن الكريم وعدم تأثره بما كتبه بعض المعلقين من الغربيين عن تحريف ظالم لمضمون الآيات القرآنية.

أما أعظم ما خطه قلم جوته فهو ديوانه (الديوان الشرقي الغربي) الذي يقول فيه "ولله المشرق والمغرب وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعًا".

أما النموذج الثامن فهو الفيلسوف والمؤرخ "هيجل" والذي يقرأ هيجل في عموم كتاباته يخرج بنتيجة هامة مؤداها أنه ينظر إلى من يعيشون خارج أوروبا على أنهم يعيشون خارج دائرة التاريخ، ثم يتطرف أكثر عندما يبلور أوروبا نفسها في الشعب الألماني، والمتتبع لنظريته في الروح الإنسانية في ظهورها في فترات تاريخية معينة ثم اختفائها في فترات، ثم تنبئه بانبثاق الروح أخيرًا في الأمة الألمانية عند ذلك يكون التاريخ قد وصل إلى مداه، أقول المتبع لذلك لا يعجب إذا ما رأى المغالطات والقفز فوق الأحداث في الموضوعات التي يعالجها.

ومن هنا نجدها كما يقول الدكتور زقزوق في حديثه عن الإسلام "يشتمل على حق مختلط بالباطل وعلى معلومات مشوهة بجوار الحقائق الثابتة".

يعقد هيجل فصلًا عن الإسلام في كتابه الشهير (فلسفة التاريخ)، ويسمي الإسلام بالمذهب المحمدي شأنه في ذلك شأن الكثيرين ممن كتبوا عن الإسلام سواء من المستشرقين أو المفكرين الغربيين.

يحاول في هذا الفصل أن يعقد مقارنة بين الإسلام واليهودية والديانة الهندية. فقد حصر اليهود الإله في أنفسهم فهو إلههم وحدهم دون سائر البشر، إنهم يحتكرون الإله، إنه إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ومن تناسل منهم دون الفرع الإسماعيلي وغيره من البشر. أما الإسلام فإنه قد حرر الألوهية الواحدة من هذه الصفة الجزئية لدى بني إسرائيل، أما الديانة الهندية فإنها ألصق بالرهبانية والفناء المطلق على حين ينزع الإسلام منزعًا عقليًا فلا يتجسد الإله ولا يميل إلى التشخيص الحسي كما أن محمدًا إنسان لا يرتفع فوق الضعف الإنساني.

والديانة المحمدية – في نظره – تقول بأن كل شيء متغير صائر ولا رابط في هذه الصيرورة إلى عبادة إله واحد، ومن ثم فكل البشر سواء لا فرق بين جنس وجنس ولون وآخر.

والعبادة في الإسلام تتمثل في الإيمان بالإله الواحد والصلاة والصيام والزكاة والاستشهاد في سبيل العقيدة، ثم يحاول الخلط عندما يتحدث عن علاقة المسلمين بغيرهم من أهل البلاد المفتوحة فيصور المسلمين بصورة مغلوطة عندما يتهمهم بأنهم كانوا يقتلون من يرفض الدخول في الإسلام، أما المتأخرون من المسلمين فإنهم كانوا أكثر ليونة مع مخالفيهم في العقيدة. ولا ينسى الدكتور زقزوق أن ينبه القارئ إلى هذا الخطأ عند هيجل فيستشهد بالقرآن الكريم وبسيرة الرسول ﷺ وبأقوال الفقهاء ليثبت خلاف ما زعمه هيجل بالنسبة لتمسك المسلم

بعقيدة، وإذ يتناقض هيجل ويذهب إلى أن تعصب المسلم لعقيدته يورث التخريب والتدمير، ثم يعود ويصف هذا التعصب بالسمو والارتباط بكل فضائل السماحة والشجاعة.

وأخيرًا نرى الدكتور زقزوق يقدم لنا الأديب الروسي تولستوى الذي أقبل على دراسة الأديان وهو في العقد الخامس من عمره بعد أن شغل ذهنه بقضايا مصيرية تتمثل في تساؤلات عن الموت والحياة.

وبعد تأمل عميق وصل تولستوي إلى أن الدين وحده هو الذي يستطيع أن يجيب على هذه التساؤلات، ومن هنا بدأ اهتمامه بالإسلام وغيره من أديان الشرق، وقد اطلع على ترجمة للقرآن الكريم وسيرة الرسول ﷺ وسنته الشريفة وأعجب بما في ذلك من دعوة إلى مكارم الأخلاق. وقد كتب مقدمة لمقالة كتبتها شقيقته عن نبي الإسلام محمد ﷺ غير أن الرقابة في بلاده قد حذفت هذه المقدمة. كما اختار تولستوي أحاديث مأثورة عن الرسول ﷺ من كتاب صدر بالإنجليزية في الهند بواسطة مؤلف مسلم، وأشرف على ترجمتها إلى اللغة الروسية، وفي مقدمة له لهذه الأحاديث يبين أن ما فيها من مبادئ تتضمن خلاصة عامة في كل الأديان.

وبعد أن عرض الدكتور لهذه النماذج التي جاء بعضها منصفًا للإسلام وبعضها متحاملًا عليه والبعض الثالث يدس السم في الدسم ويخلط الحق بالباطل شعر بأن عليه واجبًا محتمًا هو أن ينبه المسلمين إلى خطورة سكوتهم أو تخاذلهم عن القيام بما ينبغي عليهم أن يقوموا به تجاه أمتهم وما يثقل كاهل هذه الأمة من هموم وأثقال.

إذ لا يعقل أن يقف المسلمون صامتين أمام ما يتعرض له دينهم وكتابهم ورسولهم من هذا التشويه والغض من شأن ذلك كله.

وإذا كانت هناك في الغرب معاهد ومراكز بحوث وأقسام في مختلف الجامعات تهتم بتراثنا وتحاول أن تتجه الوجهة التي تتفق مع أهداف دوله التي لا يمكن أن توصف بأنها نزيهة على إطلاقها. فإن على المسلمين أن ينهضوا مشمرين عن سواعد الجد، حيث يتمثل نهوضهم في إنشاء مراكز وتكوين جماعات بحثية تتصدى لما يمكن أن يتعرض له الإسلام والمسلمون من محاولة لتغيير وجه الحقيقة الناصعة بالنسبة لدينهم وتاريخهم وشخصيتهم.

وإذا كان ذلك واجبًا على المسمين في الماضي ففي الحاضر أوجب وأحق، خاصة في تلك الظروف المأساوية التي تتعرض فيها كثير من البلاد الإسلامية من عسف وخسف وتدمير، وما يتعرض له المسلمون في الغرب نفسه من تهم وشكوك واتهام ملتصق بهم ظلمًا وعدوانًا وتعصبًا وكراهية.

* * * *